موقف ابن عابدين الفقيه

من الصّوفية والتصوّف

Mawqif Ibn Abideen Min al-Sufiyya wa't-Tassawwuf

***

دراسة تحليلية وانتقادية حول مضمون رسالة
«سل الحُسام الهندي في نصرة مولانا خالد النقشبندي»
لمؤلّفها: الشيخ محمد أمين المعروف بابن عابدين

***

كتبه:

فريد الدين بن صلاح بن عبد الله بن محمد الهاشمي
Feriduddin AYDIN

البريد الألكتروني للشيخ فريد الدين
ferid@maktoob.com

أسطنبول – ١٩٩٣م. الطبعة الثانية –٢٠٠٣م.
Süleymaniye Vakfı İlmî araştırmalar Merkezi Yayınları

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد،

فهذه دراسةٌ تحليليةٌ حول مضمون رسالة سل الحُسامِ الهندي في نصرة مولانا خالد النقشبندي، لمؤلّفها: الشيخ محمد أمين المعروف بابن عابدين.[1] فقمت بهذه الدراسة بناءً على طلبٍ من العالم الفاضل الفقيه الكامل الدكتور الشيخ عبد العزيز أبي محمد سلجوق بايندر، رئيسِ هيئة الفتوى بدار الإفْتاءِ الشريفة بمدينة إسطنبول.

فطالعت هذه الرسالةَ بإلْمامٍ واهتمامٍ. فهي تتضمن مقالةً رديةً كَتبها الفقيه محمد أمين المعروف بابن عابدين؛ رد فيها على تهمٍ قُصد بِها الشيخ خالد البغدادي النقشبندي. (١٧٧٨-١٨٢٦م.). فنقلت مقاطع هامةً من هذه الرسالة وأتبعت كُل فقرة بملاحظات مناسبة، ثم اختتمت كلامي بالحُكمِ النهائي في مضمون هذه الرسالة على سبيل الإجمال وفي ضوء الكتاب والسنة.

---

[1] **ابن عابدين: محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي (١٧٨٤-١٨٣٦). فقيه الديار الشامية وإمام الحنفية في عصره. مولده ووفاته في دمشق. له (رد المحتار على در المختار)، خمس مجلّدات، يعرف بحاشية ابن عابدين. و(رفع الأنظار عما أورده الحلبي على الدر المختار)، و(العقود الدرية في تنقيح الفتاوي الحامدية)، جزآن؛ و(نسمات الأسحار على شرح المنار)، أصول؛ وحاشية على المطول، في البلاغة؛ والرحيق المختوم في الفرائض؛ وحواشي على تفسير البيضاوي، التزم فيها أن لا يذكر شيئًا ذكره المفسرون؛ ومجموع رسائل، مجلّدان؛ وهي ٣٢ رسالة، وعقود اللآلي (الأعلام- خير الدين الزركلي)**

أسأل الله تعالى أن يجعلها لوجهه الكريم، وأن يرشد بِها كُل من يبحث عن الحقيقة وهو يهدي السبيل.

فأقول مستعينا بالله تعالى؛ قال ابن عابدين: «فَأَلف بعضهم رِسالَةً...إلخ.». (ص/٢). ولم يذكر اسم المؤلّف في البداية على سبيل الاحتقار، ثم قال مشيرا إلى الشيخ خالد البغدادي: «الإمام الشهير، والعارف الكبير...إلخ.». وبالغ في تعظيمه إلى أن قال: «وهو الإمام الأوحد، والْعلَم المفرد، والهمام الماجد، حضرة سيدي الشيخ خالد...إلخ.». وأضاف إلى ذلك ما لا يستسيغه الفقهاءُ ولا يستحسنه العلماءُ مما يزعزِع ثقة المسلم المثقّف أن يجعله في عداد الفضلاءِ العدول.

قال: «واشتهر به الطّريقةُ النقشبنديةُ الواضحةُ الجليةُ...إلخ.» (ص/٣)، فإظهر بمثل هذا الإمتداح انحيازه إلى طائفة من الفرقِ الْباطنية (وهي النقشبنديةُ) فأظهر بذلك أنه غير محايِد على أقل تقْديرٍ. بل هو متعصب لأهل الطرقِ الصوفية ومخالف لموقف علماء الإسلامِ من الباطنية وأباطيلهم. وفضلاً عن هذا، فقد أطنب ابن عابدين بمدائح متواصلة لهذا الشيخ تعظيما وتوقيرا له؛ ولم يقف عند هذا الحد، بل ازداد مجاملةً، فتصنع بمدح سلطان زمانه تزلفًا إليه دونما قرينة، وتكلّف في مداهنته له بعبارات خلابة، وخطابات براقة تملق فيها من غير مناسبة كقوله: «أدام الله طلعته السعيدة في أفق الزمان كوكبا منيرا، وخلّد ذَا لآراء السديدة في باهي مملكته عضدا ووزيرا...إلخ.» فخالف ـذه اللّهجة المتصنعة الموقف المستنكف المتأنف لعلماء الإسلام من أهل السلطة والمناصبِ. ثمّ تابع ابن عابدين كلامه بأسلوب العوام يذب عن هذا الشيخ إلى أن استدل بشهادة مفتي دمشق السيد حسين أفندي، وأسهب في مدحه باستعارات وتعبيرات مجازية استعرض فيها بلاغته وباعه

الطّويلَ في العلوم العربية وآدا ا وقواعدها على غرار ملالي[2] الأكراد، حتى غدا كأنه امتدح نفسه بمدح غيره، وكفى بذلك ملامة أن يقال: «إن هذا قد أثنى على نفسه.» لأنه ما ادعى أحد علما أو قصد ذلك بطريقة ماّ إلا رمي بالجهل. ثمّ قال ابن عابدين: «فبادرت إلى التوجه والإقبال على الطّاعة والامتثال لسؤاله (أي المفتي)، بلا إهمالٍ ولا إمهال، فجمعت هذه الأوراق...» إلى أن قال: «شهدت بِبراَءة ساحته المحترمة (الضمير راجع إلى الشيخ خالد)، عامةُ أهل البلاد من الناس... منهم مفتي الأنام في دمشق الشام، السيد حسين أفندي...إلخ.» وتفنن ابن عابدين بعد ذلك في صياغة مدح هذا المفتي، ثمّ انتقل إلى سرد ما هو بصدده، فقال:« اعلَم أني أُريد أن أكشف لك الغطا، وأنبهك على بعضٍ ما وقع في تلك الرسالة من الْخطَا، لألا تزِل بِك الْخطى (بضم الخاء المعجمة، وهي جمع خطْوة)،

كُل هذه الصيغُ المسجعةُ تدلّ على اهتمام ابن عابدين بالقشرِ وليس باللب. إذْ نشاهد من خلال كلامه أنه مفتتن بزخارف القول ليسحر ا العقول وهو منهمك في الدفاع عن خالد البغدادي لسببٍ غيرِ شديد، إذ ينقل من كلامِ الشخص الّذي نال من خالد، فَعاد يهاجمه بقوله:

قال ذلك الزاعم المزاعم: (كلاهما اسم فاعل من أصل واحد، والموالاة دلالةٌ على التشديد). ومن جملة ما نقل ابن عابدين من كلام هذا الشخصِ الّذي لَم يسمه في البداية، يفيد: أنّ الشيخ خالدا يقوم بتسخير الجن، ويستعين بالأرواح الأرضية الخبيثة، ويدعي علم الغيبِ عن إخبار الجان له، ويدعي أنه قَتلَ وربطَ كثيرا من العفاريت والجان، كلّ ذلك بإقراره مع أنه يدعي الولايةَ والإرشاد في الوقت نفْسِه.

[2] **ملالي:** جمع **ملا، وهي صفةٌ تطلَق على رجال الدين** في **اللغة الكردية والفارسية** بمعنى **الشيخ** في **اللغة العربية.**

ثمّ يستطرد هذا الشخص قائلاً: «فلما كان السؤالُ متعلقًا برجلٍ مشخصٍ معينٍ مذكورٍ باسمه، اقتضى التوقّف والتفحص عن أحواله ليتحقّق عندي جميع ما في السؤال...»

فيدلّ كلام (هذا الشخص ا هول) الّذي استرسلَ فيه أنه قد فَحص وفتش الأمر وبحثَ، حتى شهدت جماعةٌ بكل ما قد سجله من أمر هذا الشيخ، وذكر أسماء بعض المعروفين من هؤلاء الشهود، وهم: الشيخ إسماعيل النقشبندي، والشيخ أحمد علي آغازاده الكردي، والشريف أفندي الدياربكري.

كما أنه بعد وصفه أتباع الشيخ خالد بـ (الفرقة الخالدية الضالة المضلّة)، أضاف قائلاً: «بِأنه لم ينكر ولم يكْتم أحد من هؤلاءِ ما نقلَ عن شيخهم؛ بل أقروا بِأن الشيخ خالدا نفسه يفتخر بما يظهر منه من هذه الأمورِ ويعده من جملَة خوارقه وعلامة ولايته».

ثمّ لخّص هذا الشخص مقالته فقال: «فَثَبت عندي صدق ما في السؤالِ (...)، فبادرت إلى الجواب (...) ومن كتم علما أُلجم بلجامٍ من النار. فأجبت متوكّلاً على الله التواب قائلاً بِأنه ساحر بِالإجماع. أي باتفاق المحقّقين من علماءِ المذاهب الأربعة».

قال ابن عابدين: هذا تص كلامه. (ص/5)

***

بعد هذه النقولات، بدأ ابن عابدين بمعاتبة هذا الرجل ورميه بالتعسف وا انبة عن طريق الإنصاف من جهة، كما وقف بجانب الشيخ خالد موقف المدافع المتحمس المفتدي من جهة أخرى.

ومن الغريب أن ابن عابدين الفقيه يعبر عن فائق إعجابه بالشيخ خالد الصوفي بقوله:

«فإنّ الّذي شاهدناه من حالته البديعة (...) إحياؤه بقَع الْمساجِد والخَلَوات بإقامة الأذْكَار والأوراد والصلوات...إلخ.» كأنّ إحياء المساجد مقصورةٌ على صلوات الصوفية وأورادهم وأذكارهم الّتي أكثرها مستحدثات وبِدع وحفلاَت سريةٌ وحلقات شيطانيةٌ وشطحات وخرافات إسرائيليةٌ وضجيج ومبالغات وهذيانات مستورثةٌ من البوذية والمانوية والشامانية وغيرها من الأديان الوثنية ومن التيارات الفلسفية. كلّها مخالفةٌ لأذكار رسول الله صلى اله عليه وسلم، ومنافيةٌ لمجالسِه وأحواله ومناسكه ونوافله الطيبة الشريفة الثابتة في سنته النبوية الطاهرة البيضاءِ. ثمّ يدعي ابن عابدين: أنّ هذا الشيخ كان له بعض مريدين قد طردهم فتطاولوا عليه بالفرية. (س/٦)

أما مسألةُ الطرد عند النقشبندية، فليس أمرا بسيطًا كما هو شائع بين الناس. إذ أنّ الطرد عند العامة هو الإبعاد المحض. أي إذا طردت شخصا من مكان تكون قد أبعدته من تلك الساحة بخلاف ما قد اصطلحته الصوفيةُ. أما عندهم، فالمريد إذا طرده الشيخ أصبح مطرودا ومبعودا من باب اللهِ أيضا، ومن باب رسوله... وهو شقي من أهل النار بعد ذلك على التأبيد. ويحرم عليه الجنةُ وإن قضى جميع حياته

ساجدا لله تائبا إليه ومستغفرا؛ فلا ينفعه عملٌ صالحٌ حتى يرضى عنه شيخه (!) وهذَا أشبه ما يكون بقرارات بابا (الزعيم الروحي للمذهب الكاثوليكي) المعروفة بالأفوروز Aphorose ضد العصاة المسيحيين

هذا، وليس من الأمور الخفية ما قد جرت من مشاحنات مريرة وصراعٍ متواصلٍ بين مشايخ الطرق الصوفية في المنطقة الشرقية من تركيا بسبب اتهام بعضهم البعض الآخر بأنه مطرود من قبلِ شيخه وأنه لا يجوز الإنابة إليه. وكمثال على ذلك: فإنّ أسرة الشيخ محمد الكُفروي ألْصقَت هذه التهمةَ بالشيخ صبغة الله الحيزانيّ، فأفضى ذلك إلى عداءٍ شديد بين هاتين الأسرتين حتى كانت جماعات من مريدي الشيخ محمد الكُفروي تقصد من مدينة آغري AĞRİ وتصل إلى ضواحي مدينة بدليس BİTLİS [٣] بشق الأنفس، حيث ا ضريح الشيخ صبغة الله وخليفته الشيخ عبد الرحمن التاغي المعروف بين معارضيه بالشيخ الطاغي، كانوا يقومون بمثل هذا السفر الذي يكلّفهم، لمجرد أن يبصقوا على قبورهم وأن يصبوا على أرواحِ المدفونين في هذه المقبرة جام غضبهم بأنواع السب والشتمِ واللّعنِ! وما زالت هذه

---

[٣] **بدليس: ولايةٌ من المدن الواقعة في شرقي تركيا. وهي على مقربة من بحيرة وانْ Wan. عدد سكا ا: ٣٠٠٨٤٣ حسب إحصائيات عام ١٩٨٥م. يختلف أهلُ المدينة بين أكثرية من الأكراد وقلّة من الأتراك. إلاّ أنّ جميع العشائر القاطنة بضواحيها أكراد ما عدا قبيلتين عربيتين، وهما: قبيلة شيبو والقبيلةُ البدريةُ. وما زال أبناء هاتين القبيلتين يتكلّمون باللغة العربية، إلاّ أنّ لهجتهما قد تأثّرت باللغة الكردية إلى حد بعيد، كما أ م يجهلون القراءةَ والكتابةَ بالعربية.**

أما المسافةُ بين مدينتي بدليس وآغْري، فتقدّر بثلاثمائة كم. لقد كان لمشايخ الطرق الصوفية تأثيرا كبيرا على سكّان هذه المنطقة إلى السنين الأخيرة. وكان الصراع قائما بين أتباعهم بسبب المنافسة في طلب الشهرة والرياسة. إلا أنّ هذا التأثير بدأ في التردي منذ أن انتشرت النـزعة القومية بين صفوف الجيل الصاعد للأكراد. كما قد اضطر كثير من هؤلاء الشيوخ بعد الأحداث الدامية الأخيرة أن يرحلوا إلى مناطق أخرى من الجهة الغربية للبلاد.

العداوةُ قائمةً بين الأسرتين منذُ مائة وخمسين عاما. كل ذلك أسفر عن ادعاء الكُفرويين: أنّ الشيخ صبغةَ اللهِ الحيزاني اغتصب منصب الخلافة في الطريقة النقشبندية، وادعى وراثةَ عبد الله الهكّاري من غير استحقاق، بينما كان هو في الحقيقة خليفةَ خليفته (الشيخ طه) الذي طرده من الطريقة، وأعلن أنه دعي منتحلٌ كذاب. ومعنى ذلك: أنّ الشيخ صبغةَ اللهِ الحيزاني نازع الشيخ الكفروي على منصبه في الطريقة وعلى رتبته في السلسلة النقشبندية ـذا الإدعاء. تلك السلسلة التي يزعمون أ ا متصلة برسول الله صلّى الله عليه وسلّم(!)

ويعود الخلاف بين هذين الخصمين إلى أنّ كلاهما كانا خليفتي الشيخ طه الهكّاري، والقصة طويلة لا محلّ لها من الإعراب.

هكذا فإنّ مفهوم الطّرد عند ابن عابدين العلاّمة الفقيه (!) لا يختلف عن مفهومه عند الباطنية. ونستنتج من هذا: أنّ من كان قد طرده الشيخ خالد، فإنه كان مطرودا عند الله في اعتقاد ابن عابدين...

إنّ مسألةَ الطرد عند المقشبنديين، تتضح بكل ما فيها من دجلٍ وتضليلٍ عبر كلمات خالد البغدادي بالذّات، في رسالة بعثَها إلى مريديه في إسطنبول، يحذرهم فيها مخالطةَ رجلٍ طَرده من طريقته،[٤] ويهددهم أنه سوف يقطع همته منهم، أي أنه لن يمدهم بكراماته في الدنيا ولا بشفاعته عند اللهِ يوم القيامة إنْ خالَطوه واتبعوه، كما يخبِرهم بأنّ ذلك الرجلَ مطرود. وأما مفهوم الهمة عند النقشبنديين فإنه معتقَد هام جدا في طريقتهم، وقد ذكروا منها ما لا يحصى من حكايات

---

[4] **هو عبد الوهاب السوسي، موضوع هذه العجالة.**

عريبة من طي الأرضِ لهم، ومشيهم على البحر، وطيرانِهم على أجنهة السحبِ وأمثالِ ذلك على سبيل الاستشهاد بكراماتم... ومعنى الهمة عندهم: أنّ الشيخ يمد مريده متى أصابته نازلةٌ فناداه، يقطع مسافات شاسعةً فيحضر عند مريده وينقذُه ممّا حلّ به من البلاءِ.

وهذا مقطع من نص كلامِ خالد البغدادي في صدد همّته، ورد ذلك في رسالة ابن عابدين.

يقول البغدادي:
«فألآنَ أُخبِركُم بِأني وجميع رِجالِ السلسِلَة تبرأْنا من عبد الْوهاب، فَهو مطرود عنِ الطريقَة، فَكُل من تصادق معه لأجلِ الطريقَة فَلْيترك مصادقَته ومكَاتبته، وإلا فَهو بريءٌ من إِمداد هذَا الْفَقيرِ، وإِمداد السادات الكرامِ، ولاَ أرضى أنْ يكَاتبنِي ولاَ أنْ يستمد همتِي بعد وصولِ هذَا الْمكتوبِ إِلَيه...»[٥]

نعم، فإنّ ابن عابدين العلاّمة الفقيه (!) أيضا كان يعتقد ذه الخذعبلات. ولعل هذا هو من الأسباب التي دفع ابن عابدين إلى هذا الميدان حتى اصبح جنديا يدافع عن قلعة الصوفية.

يستطرد ابن عابدين قائلاً:
«فَعلمنا أنّ ما ذَكَر (أي هذا الرجلُ المطرود) كذب وافتراءٌ. ويستبعد ابن عابدين ذا الرأي الجازم أن يكون الشيخ خالد قد قال شيئًا مما نسِب إليه (أنه يقوم

---

[5] **عبد ا يد بن محمد بن محمد بن عبد الله الخاني، الحدائق الوردية** في **حقائق أجلاّء النقشبندية، ص/٢٣٢**

بتسخير الجن، ويستعين بالأرواح الأرضية الخبيثة، ويدعي علم الغيبِ عن إخبار الجان له، ويدعي أنه قتل وربط كثيرا من العفاريت والجان...). إذ أنه لو لم يكن يخشى الله لخشي العباد أن ينحطّ قدره على الأقل». (ص/٦)

كان هذا لفظ ابن عابدين بالذّات!

ثمّ أشار إلى «هذه الإدعاءات الباطله» على حد وصفه إياها: «فإنه مما تأنفه الأسماع وتمجحه الطباع»

وبالاختصار يقول ابن عابدين: إنّ الشيخ إسماعيل المذكور لم يقل كما أخبر عنه كاتب الرسالة، وإنما أفاد أنه كان يسمع أصواتا خفيةً، ولم ير أحدا أثناء الذكر والحلقة التي يسمو ا: التوجه. (ص/٧)

فأنا تذكّرت هنا أمرا ذه المناسبة، وهي أنّ مشايخ الطريقة النقشبندية بالمنطقة الشرقية في تركيا كانوا يقيمون طقوسا غريبةً لا يعرفها المسلمون ولا يعترفون ا، ومن جملة هذه الطقوس أنهم كانوا يعقدون حلقةً خاصةً تختلف عن حفلة (ختم خواجكان)، ويسمو ا التوجه. ومن الغريب أن مشايخ هذه الطريقة بالمنطقة الغربية لا يعرفون عن هذه العادة شيئًا، رغم ما يدعون أنهم يتصلون بتلك السلسلة المزعومة، ورغم اتحادهم معهم في الطريقة والمشرب والمُعتقد. وهذا من الحجج التي تدلّ على عدم استقرارهم وبطلان دعواهم التي لا تقوم على أساس من الحق.

ثم يسجل ابن عابدين نص رسالة كتبها الشيخ إسماعيل المذكور، يتبرأ فيها كاتبها عما أُسنِد إليه، كما يعتز بشيخه خالد النقشبندي، ويمتدحه مدحا طويلاً، ثمّ يتبرأ من كلّ من يتوهم السحر أو الكفر أو الفسق أو البدعة في حق شيخه. كذلك يتبرأ خاصةً من كاتب الرسالة التي طعن ا في شيخه، وسماه هنا، بعد أن امتنع من ذلك عبر حديثه، فقال: «لاسيما من المنكر المطرود الذي اسمه عبد الوهاب...». (ص/٨)

لقد كنت في قلقٍ منذ بدأت أتصفّح رسالة (سلّ الحسام الهندي)، هذه التي تناولْتها، واتخذْتها موضوعا لبحثي ودراستي حول الطريقة النقشبندية، كنت في قلقٍ لأتعرف على اسم هذا الشخص الذي سلّ ابن عابدين الْحسام عليه لينتقم منه عن خالد البغدادي، ولكنه لم يذكره ألا بالضمائر استخفافًا به، حتى وصلت إلى هذا المقطع من الكتاب، فوجدت اسمه مذكورا في رسالة أُخرى منقولة ضمن سطورٍ ابن عابدين. وهذا يعني أنّ ابن عابدين، بلغ منه الغضب على هذا الشخص حتى جعله يكره أن يذكر اسمه في كتابٍ لم يدونه إلاّ ليملأه باللّعن عليه. وبذا عرفنا أنّ ذلك الشخص الّذي اصبح غرضا لسيف ابن عابدين اسمه (عبد الوهاب السوسي).

ويدعي الشيخ إسماعيل (على حد قوله): أنّ عبد الوهاب، هذا الطاعن في خالد البغدادي: «قد بنى فضوله على خبرٍ قصة الشيخ إسماعيل بالذّات عليه (أي على عبد الوهاب السوسي)، فيكون عبد الوهاب قد تصرف فيما نقلَ إليه. فزاد عليه أو حرفه بألاستعانة بأحد الأشخاص المطرودين من باب الشيخ خالد، حيث كان هذا الشخص مع الشيخ إسماعيل في حجرة مغلّة البابِ، فسمع أصوات الأجنة

تذكر الله. فلما قص هذا الخبر على عبد الوهاب استغلّ هذه القصة فزاد فيه ما زاد.»

ثمّ عثرت على اسم هذا الرجل في رسالة أخرى مدونة باللغة التركية ألّفها شخصيةٌ من كبار الأعلام في تركيا اسمه قَسِيم كُفْروي، يتطرق فيها إلى نفس النـزاع، فيقول: «إنّ عبد الوهاب السوسي كان من خلفاء خالد البغدادي. فكلّفه شيخه خالد بنشر دعوته في إسطنبول. ولماّ بلغه أن عبد الوهاب يأمر الناس بالرابطة لنفسه، طرده من طريقته بعد أن جرت بينهما مشاجرات ومساجلات...». كذلك وردت هذه القصةُ في عدد أخرى من الرسائل والكُتبِ للنقشبنديين وغيرهم. فمن أراد المزيد من المعلومات حول هذه القصة، يكفيه مراجعة (الحدائق الوردية في حقائق أجلاّء النقشبندية) لعبد ا يد الخاني.[6]

أما (الرابطة): فهي صلاة في الديانة النقشبندية مأخوذةٌ من معتقدات مجوس الهند، ويغلب أ ا مقتبسةٌ من كتاب السطرايات للراهب الهندي المعروف باسم (باتانجالي Patanjali). تنشب أحيانا بسبب هذه البدعة فتن بين المسلمين والنقشبنديين في تركيا.

أود هنا أن أشير بالمناسبة إلى أنه ظهر لي أثناء مطالعة رسالة (سلّ الحسام الهندي) لابن عابدين، أنّ المؤلّف كان متأثرا إلى حدود بعيدة بظروف عصره والبيئة التي نشأ فيها. وتشهد على ذلك كلماته المسجعةُ وما يبدو من خلالها من تكلف

---

[6] Kasım Kufralı, Nakşibendîliğin Kuruluş ve yayılışı, s. 185. Türkiyat Enstitüsü No.337

وتصنعٍ وتشدقٍ. كلّ ذلك ليظهر به مهارته في تنسيق العبارات واتقانه في التعبير بسحر الكلمات.

لقد كان عصر ابن عابدين مرحلةً خطيرةً انتشرت فيها الفتن وعم فيها الفساد، وساد الاضطراب على الحياة الاجتماعية في جميع أرجاء المعمورة، خاصةً العالم الإسلامي شهد ا يارا بالغا في الأخلاق والسلوك، فأدي ذلك إلى ضياع الرشد وغياب القيمِ السامية والفصائل، حتى احتلّت مكا ا يِدع الصوفية وخرافات السحرة والمشعوذين. نشاهد موقف ابن عابدين الغافلَ عن أحداث وتطورات عصرِه في كلّ كلمة من عباراته. ونجده في سبأته العميق كَجهلَة زمانه لا يفطَن إلى شيءٍ بدت أماراته، بل استخدم علْمه ومعرفته واستهلك وقته في الرد على شخصٍ هاجم شيخا من شيوخ الصوفية وهو في غنى عن ذلك، بينما كان عليه أن يستخدم علمه في إيقاظ المسلمين وإثارة مشاعرهم للوقوف أمام التيارات الهدامة والفلسفات الماكرة من التصوف والفرمسونية وأشكال غريبة من الزندقة والكفريات التي أماتت الحميةَ والغيرةَ الإيمانيةَ في قلب الرجل المسلم وجعلت العالمَ الإسلامي فريسةً للأمم الكافرة بمدة قليلة بعد موت ابن عابدين، فا ارت دولة المسلمين، فسقطوا بأيدي أعداءهم، وزحف الغرب على الوطن الإسلامي بكامله فاستعمره، وترك فيها من خبائثه يوم غادره. ثمّ بنوا على أنقاض هذه الدولة العظيمة دويلات قَزمةً وفرقوا بذلك صفوف المسلمين وشتتوا شملهم وجعلوهم شيعا وأحزابا، كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون.

ولكن لم يستطع شيوخ الصوفية المدرعون بدفاع ابن عابدين وأمثاله أن ينقذوا المسلمين من هذه البلايا على الرغم من تعظيم ابن عابدين لهم وما يعتقد فيهم من البركة والكرامة والتصرفات المعنوية.

ثمّ سجل ابن عابدين في رسالته (ص/٨)، مقطعا آخر من كلام عبد الوهاب السوسي، جاء فيه بالاختصار: أنّ عبد الوهاب استشعر أنه سيصبح هدفًا للأغراض على استشهاده بمن هو عدو لنفسِ الشخص الذي يعاديه، فعابه ابن عابدين بمثل هذا الاستشهاد وبحججٍ أخرى يدلّ كلامه على سعة علمه وكمال معرفته بطرق الاستدلال، على الرغم من غفلته عن واقع عصره. إلاّ أنه نقل شيئًا من كلام ابن حجر الهيتمي الذي تدلّ ألفاظه على انتصاره للصوفية وتساهله مع الباطنية على طريقة ابن عابدين، مما يسبب ذلك عدم الثقة برأيهما. ويستغرب من مثلهما هذا الموقف.

ثمّ ينهال ابن عابدين على هذا الطاعن في الشيخ خالد بالتكذيب المتواصل، مستدلا بآيات كريمات عدة، ويرميه بالحسد والافتراء والزور، كما يحاول إبراءَ ساحة الشيخ خالد من الكفر والزندقة بدلائلَ منقولة من كُتبِ الرجالِ كابن حجر الهيتمي وابن شحنة... ويعززها بطائفة من الأخبار والأشعار.

ثمّ بعد كلّ هذه المقدمات والتعليلات، والحُكْمِ على عبد الوهاب، والإجابة على سؤالٍ مفروض بأنّ «القاعدةَ الّتي عليها التعويل بين أهل التفريع والتأصيل: أنّ الجرح مقدم على التعديل».

سلك ابن عابدين نفسه خلاف هذه القاعدة بحجة:«أن هذه في غير من اشتهرت عدالته وظهرت ديانته، وفي غير من علم أنّ التكلم فيه ناشئٌ عن عداوة... إلخ». (ص/١٢)

ثمّ انتقل ابن عابدين بعد ذلك إلى شرح أمورٍ متعلّقة بموضوع الطعن فقال: «ولنشرح لك هذا المقالَ تتميما للمرام في أربعة فصولٍ». (ض/١٤)

«الفصل الأول: في بيان حقيقة الكرامة»
«الفصل الثاني: في بيان حقيقة الجن والفرق بينهم وبين الشياطين، وجواز رؤيتهم والاجتماع م»
«الفصل الثالث: في بيان السحر وأقسامه وأحكامه...»
«الفصل الرابع: في بيان دعوى علم الغيب إلى آخره...إلخ»
وربما يكون ابن عابدين قد أصاب في توضيحاته الّتي أوردها ضمن الفصول الثلاثة الأولى، وقد بذل جهدا بالغا في الكشف عن أسرار مفهوم الكرامة والسحرِ والاستدراج وأمثالها من الخوارق. ولله دره في شرح مسائلها وبيان الفوارق الموجودة بينها. ونقل ما يتعلّق ا من آيات وأخبارٍ وآراءٍ للعلماءِ. كذلك حسن ترتيبه لهذه الفصولِ وتبويبه لكلّ مسألة على حدة، وأسلوب استدلاله. كلّ ذلك جدير بالتقدير مما يدلّ على معرفته الواسعة وباعه الطويل في مختلف العلومِ. ومع هذا المستوى الرفيع والعقل الراجح والحرص المتزايد في استنباط الحقائق فقد انثنى ابن عابدين عن منهج العلماء المحقّقين عندما تدخل في دعوى علم الغيب. فعلى الرغم من وجود النصوص القاطعة في كتاب الله بأنه وحده تعالى منفرد بعلم الغيبِ « وعنده مفَاتح الْغيبِ لاَ يعلَمهآ إِلا هو».(الأنعام٥٩). « قُل لا أَقُولُ لَكُم عندي

خزآئن الله ولا أعلَم الْغيب ولا أَقُولُ لَكُم إني ملَك إنْ أَتبِع إلا ما يوحى إلَي قُلْ هلْ يستوِي الأَعمى والْبصير أَفَلاَ تتفَكرون».(الأنعام/٥٠). «قُل لا أملك لنفْسِي نفْعاً ولاَ ضراً إلا ما شآءَ الله ولَو كُنت أعلَم الْغيب لاَستكْثَرت من الْخيرِ وما مسنِي السوءُ إنْ أناْ إلا نذير وبشير لقَومٍ يؤمنون».(الأعراف/١٨٨).

فقد أغضى ابن عابدين عن كلّ هذه البراهين القاطعة وتكلّف في تأويل الآية الكريمة: «فَلاَ يظْهر علَى غَيبِه أَحداً * إلا منِ ارتضى من رسولٍ». (الجن/٢٦-٢٧)، وتمسك بالقيل والقال بغيةَ أن يشملَ هذه الآيةَ على غير الرسلِ من البشر من أولئك الّذين يحظون الشهرةَ بِالْتفَاف الرعاعِ حولهم، وبإطلاقِ بعض الناسِ صفةَ الولاية عليهم وإن لم يدعوها لأنفسهم.

ثم أ ى ابن عابدين رسالته هذه «بخاتمة مشتملة على نبذة يسيرة» وليست بيسيرة في الحقيقة وذلك «عن بعض العلماء الأعلامِ من معاصري هذا الإمام الذين شهدوا له بالفضل التام وبأنه من العلماءِ العاملين والأولياء الكرام» على حد قوله وطبقا لذوقه السقيم وعقله المتخلّف القديم، فلا يستحق أن تم به لبساطة إطلاقه وخلطه ومراوغته ومجازفته...

أما بعد هذه الدراسة السريعة لرسالة ابن عابدين المسماة «سلّ الحُسام الهندي...»، فأقول مستعينا بالله سبحانه على سبيل الإيجاز: أنّ في هذه الدراسة أمورا يجب الوقوف عليها بامعان وتحليلها في ضوء الكتاب والسنة:

أولها: أنّ ابن عابدين –غفر الله لنا وله- قد دون هذه العجالةَ ردا على شخصٍ اسمه عبد الوهاب، ولم نعثر على شيءٍ من آثارِه إلاّ ما ذكرناه. وتجِب الإشارةُ هنا إلى أنّ عبد الوهاب هذا الرجل المستهدف ليس هو محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣-١٧٩٢م.) الزعيم النجدي الذي تنسب إليه الطائفة الوهابيةُ، تفاديا للاشتباه.

وثاني هذه الأمور: هو أنه ثبت لي من خلال عباراته أن ابن عابدين غاضب أشد الغضب على هذا الشخصِ بسبب تطاوله على الشيخ خالد البغدادي، وكأنه يرى نفسه مكلّفًا بالدفاع عن هذا الشيخ خاصةً وأكثر من أي فرد آخر من جمهور الناس المتهافتين حول هذا الشيخ! فاستغربت هذا الموقف منه، ووددت لو عرفت السبب المعقول لهذه المحاولة، كما تمنيت لو عرفت نسبته إلى هذا الشيخ وقرابته التي دفعته إلى هذا الميدان حتى أخذ على عاتقه أن يقوم بمثل هذه المهمة وأن يتخذ من هذا الأسلوب الحماسي في الدفاع عنه(!) وقد انتابني الاستغراب أيضا بأشد ما يكون، عندما تصفّحت أواخر كتابِه وقرأت الفصل الرابع من مقالته إذ يقول للقارئِ بأسلوبه المسجعِ على سبيل التنبيه:

«قد ظهر لك وبانَ، مما قررناه في هذا الشأن، أنّ من كان من أهل العلم والعرفان، وأخبر عن أمرٍ حدثَ أو سيحدثُ في الزمان، مما أطلعه عليه الملك المنان، لا يحلّ لمسلمٍ ذي دينٍ وإيمان، أنّ يتهمه بأنّ ذلك عن إخبار الجان، وبأنه ساحر وشيطان، وأن يحكم عليه بالكفر والزندقة والإلحاد بمجرد داءِ الحسد والافتراءِ والعناد؛ فإنّ سهامه ترجع إليه، ودعاويه تعود عليه، ويظهر منه خبث العقيدة، وأنّ آراءه غير سديدة، ويخشى عليه سرعة الانتقامِ وسوء الختام والعياذ بالله».(ص/٤٥-٤٦)

نعم هكذا ابن عابدين الفقيه الموقر بين جماهير الأحناف بل وعند كثير من علماء أهل السنة! قد انحطّ إلى هذا الدرك الّذي يأسف عليه كلّ ذي علمٍ بالحلال والحرام، وكلّ ومطّلعٍ على العقيدة في الإسلام. فنسأل الله تعالى أن يكون قد ندم وتاب عن هذه الفضيحة بعد أن سجل هذه الترهات. ولعلّ بعض الأقلام المسمومة قد جرت على حسابه والله أعلم بالخفايا.

أما الشيخ خالد البغدادي هذا الّذي اختلفت الأقلام بين طاعن فيه ومدافع عنه، فقد أوردت ترجمته في الفصل الرابع ضمن كتاب ألّفته تحت عنوان (الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها)؛ ولكنني أرى أن أذكر هنا أيضا نبذةً من أحوال هذا الشخص الخطير الّذي جاءَ بنظرة روحانية جديدة أشغل ا عقول ملايين الناسِ في عبادة اللهِ منذ قرنين. فحدث بذلك تغير جذري في عقائد المنتسبين إليه، وانتشرت بدعته خاصةً بين الأتراك والأكراد على الساحة التركية.

خالد البغدادي رجل من أكراد العراق ينتمي إلى العشيرة الميكائيلية القاطنة بضواحي مدينة السليمانية. ولد البغدادي عام ١٧٧٨ للميلاد، ونشأ في المنطقة نفسها. درس على جماعة من الملالي الّذين جرت العادةُ على تسميتهم بالعلماءِ وهم في الحقيقة لم يكونوا من العلماءِ. إذ لا شك أنّ العلم هجر أرض المسلمين منذ قرون وحلت م حقبةٌ مظلمةٌ بعد القرن الثالث من الهجرة النبوية عليه السلام ودامت إلى هذه الأونة. ذا طبعا لا يجوز إطلاق صفة العلمِ على البغدادي أيضا ولا على أحد من الملالي وشيوخ الصوفية. إذ أنهم طبقة من أهل الرهبنة والجهل والعمى، لا حظ لهم من العلوم والمعارف والثقافة المعترف ا في العالَمِ المتحضر؛

بل كانوا ولا يزالون يدرسون ركاما من الكتب ذات الورق الأصفر التي حشاها نفر من شيوخ العجم بعباراتم المعقّدة، كتبوها في عصور الظلامِ مثل كتاب العزي في الصرف وكتاب الإظهار والنتائج وحلّ المعاقد والفوائد الضيائية في النحو. وعدد أخر من كتبهم مدونةٌ باللغة الكردية مثل كتاب الظروف والتركيبِ في النحو العربي. كل هذه الكتب خالية من القيمة العلمية لا فائدة فيها، عباراتا غامضةٌ ومعقّدةٌ، لم ينجح مؤلفوها في الأسلوب والتبويب. فضلاً عما حشدوا فيها من شروحٍ وحواشي مطولة زادتا غموضا فحولتها إلى ألغازٍ أعيت من تناولها من الطلبة والمدرسين، فأشغلتهم عن الانفتاح الّذي يشهده العالَم المتحضر وعن الصحو الّذي بفضله قطع جماهير المثقّفين شوطًا بعيدا في مضمار العلوم والفنون. كما أنّ هذه الكتب غير معروفة في البلاد العربية. والطّامة الكبرى أن التلاميذ كانوا يحفظون هذه الكتب طوال مدة لا تقلّ عن خمسة عشر عاما. ثم تعود عليهم بالخسران والندم حين يتخرجونَ وهم غير ذي كفاءة لأي عملٍ. لذا منهم من يمارس الشعوذةَ، ومنهم من يصبح ذيلاً للصوفية طلبا لرغيف يشبع به بطنه.

كان خالد البغدادي من أبناء هذه البيئة المتخلفَة. ولكنه كان لَبِقًا نشيطًا جريئًا متلونا يتقلّب مع الظروف بصبرٍ وينسجم مع كل من يرجو منه المصلحةَ ويستغل الفرصة في حينها. ساعدته هذه الطبيعة حتى استطاع أن يحقق جميع أهدافه ويصبح رجلاً مرموقًا يتهافت عليه الآلاف، وإن كانوا من الأوغاد والرعاعِ. ذلك أن من واقع الحياة الاجتماعية أن الإنسانَ متى حظي من الشهرة واحتفل به الناس وخاصةً إذا كانوا صادقين في ولاءهم له، هانت عليه صعاب الأمورِ ودانت له الرقاب. هذا ما حصل للبغدادي حتى طارت شهرته إلى الآفاق. فلم يحتمل لأحد، حتى للعلماء

أن يدققوا النظر في دعوته الجديدة، عما إذا توافق أصولَ الدينِ أم هي بدعةٌ أو سلسلةٌ من معتقدات الديانة البوذية والهندوكية!

كان خالد ماهرا في استمالة قلوب الناسِ والتحكّم في رقا م. نجح بذلك في جمعِ نخبة من رجالات الأكراد تحت زعامته، ونفذ إلى قرارة نفوسهم بسحره حتى غدوا عبيدا يعكفون على أعتابه وهو يسيطر على نفوسهم وعقولهم بعد أن عودهم على صلاة الرابطة وهي شطر هام من طقوسهم، ومبدأٌ أساسي تقوم عليه هذه الطريقةُ الصوفيةُ اقتبستها من الديانة البوذية. يكمن سر الطريقة النقشبندية في هذا المبدأ الخطير الّذي يجعل من المريد عبدا ذليلاً أمام شيخه، متفَانيا فيه، يطيعه في كل ما يأمره، ولو كان محرما بنص الكتابِ والسنة!

لعب خالد دوره في نشر طريقته على جميع أرجاء المملكة العثمانية بجهود أنصارِه من ملالي الأكراد وعلى رأسهم: عبد الرحمن الكردي الْعقْري، وعبد الفتاح الكردي العقري، ومصطفى الكُلْعنبري، والملا عباس الكوكي، والملا هداية الله الأربلي، وملاّ عثمان الكردي الطويلي، وخالد الكردي، وعبد القادر الديملانيّ، ومحمد ا ذوب العمادي، ومحمد الفراقي الكردي، ومحمد بن عبد الله الخاني، وإسماعيل الأنارانيّ... لقد حاول هؤلاء ومئات آخرونَ من ملالي الأكراد والأتراك بكل ما في طاقتهم، وبذلوا أقصى جهودهم في نشر دعوة هذا الرجل إلى الآفاق دون أن يتأملوا هل أنه على حق أم على باطل، حتى أصبحت حكومة الدولة العثمانية تتهيبه وتعترف بمركزه وتحسب له حسا ا. فكانت من نتائج هذا التحفّظ أن اتبعت الدولةُ سياسةً خاصةً سايرته ا واستغلّته في حرب الوهابية. إذ وافقت

هذه السياسةُ أهداف الدولة وأهداف خالد في الوقت ذاته. لأنّ الدولةَ كانت في حاجة إلى موافقة الرعية في هذه الحربِ، فحصلتها بتأييد خالد.

إنّ الصوفيةَ عامةً والنقشبنديةَ خاصةً يكرهونَ أهل التوحيد، ويرمو م بإساءة الأدبِ إلى ذَات النبي عليه الصلاة والسلام، وإلى الشخصيات المعروفين بينهم بالأولياءِ، كما أنّ أهل التوحيد (بما فيهم الوهابية)، يكرهون سائر القبوريين. ولمّا كانت معتقدات معظم الأتراك والأكراد مشوبةً بالوثنية، نالت دعوةُ خالد البغدادي رغبةً عظيمةً بين الطّائفتين، وانتشرت الطريقة النقشبنديةُ على كامل الساحة العثمانية في فترة أقل من ثلاثة أعوام. وصلت دعوة هذه النحلة إلى أقصى بقاع شبه جزيرة البلقان غربا، وإلى تخوم دولة الروس في جبال قوقاز شرقًا، واجتاحت منطقةَ كُردستان والأناضول بتمامها في حياة خالد البغدادي. كانت هذه التطورات في الحقيقة انتصارا عظيما للوثنية الجديدة على أرض الإسلام. وما زال هذا الخطر المتنكر في لباسٍ الزهد والتقوى يهدد الدين الحنيف على هذه الساحة، كما أنّ القلّة من المؤمنين الحنفاءَ من أبناء الْقَومينِ التركي والكردي يعانونَ اضطهادا شديدا في هذه الآونة الأخيرة من جراء التحالُف العلماني-النقشبندي.

مات خالد عام ١٨٢٦ للميلاد وهو نادم على ما جاء به من البدع، وألفاظه شاهدة على هذه الندامة إذ يردد الآية الكريمة {يا حسررتى على ما فَرطْت في جنبِ اللهِ...}[٧] قُبيلَ أن يلفظ أنفاسه الأخيرةَ. ولعلّ من يقول معترضا أن كل مؤمن يحظى من الصحوة الإيمانية ، لا بد وأن يكثر من الاستغفارِ وأن يظهر الندامةَ

---

[٧] سورة الزمر/٥٦.

وهو على الرمق الأخير. هذا كلام صحيح لا شك فيه. ولكنه لا يصلح أن يحتج به لإبراء ساحة خالد. لأنه بالذّات يعترف في وصيته بسلبيات صدرت منه على سبيل الإيجاز وهو مضطر للاختصارِ آنئذ حتما في تلك الظروف الخطيرة التي حلّت به إذ كان قد أصابه الطاعون، والله سبحانه أعلم به أنه لو كان على كمال الصحة لربما اعترف بأضعاف ذلك. وهذه كلماته الأخيرة: «لا تزيدوا التكايا عما في عهدي. ومن أراد الإحداث فليعمر جامع العداس».[٨] فقولوا بالله، أي شيخٍ من شيوخ الطرق الصوفية أوصى حتى الآن بمثل هذا الأمر، و ى أصحابه عن أن يزيدوا في عدد التكايا؟! هذا أمر لا يستقيم مع المنطق السليم. إذ أنّ النهي عن إقامة التكايا معناه النهي عن ممارسة طقوس الصوفية. وهذا قد صدر عن خالد البغدادي بصراحة بالغة من خلال كلماته المنقولة آنفًا. والله تعالى غني عن عذابه وعذابنا، كما نتمنى أن يشملنا جميعا غُفْرانه، إلا أن تأثير هذا الرجل لا يزال يوجه ملايين الناس في ازدياد التكايا، وإسرارِهم على بِدعه، فضلاً عن الاضطهاد الذي يمارسه أنصار طريقته ضد المؤمنين الحنفاءِ في تركيا اليوم.

وعلى ضوء ما أوردت في هذه العجالة من معلومات هامة أريد أن أختتم كلامي بنبذة من الوصايا للقراءِ الكرام، وخاصةً منهم القائمين بإرشاد الناسِ أن يلتزموا جانب الحيطةَ في ثلاثة أمور:

أولها، أن يتمسكوا بمذهب السلف الصالح في التعامل مع كتاب الله العزيز. وأما مذهب السلف، فهو ترك التأويل، وعدم المبالغة في التفسير، والتفويض إلى الله

---

[٨] **راجع ترجمته بالتفصيل في كتاب "علماء دمشق وأعيا ا في قرن الثالث عشر الهجري للمؤلّفَين: محمـد مطيـع الحافظ ونزار أباظه، الجزء الأول ص/ ٣١١. دار الفكر- دمشق.**

تبارك وتعالى في المتشا ات بلا تعطيل. {وما يعلم تأويله إلا اللهُ...}. إنّ الاقتحام في هذا الأمر عدول عن جادة الصوابِ، كما لا يخفى تمييع أهل التأويل للعقيدة الحنيفة مما أسفر ذلك عن معتقَدات باطلة افتتنت ا الناس وتغذت ا النفوس المريضةُ، وقامت على أساسها فرق باطنيةٌ وأحزاب شريرةٌ ضربت الإسلام من الداخل. ولا يزال المسلمون في شتات واختلاف وتناحرٍ من جرائها.

أما ثانيها، أن يحذّروا المسلمين من مخالطة الصوفية الّذين يظهرون للناسِ في لباس الزهد والتقوى، وهم في الحقيقة زائغون عن المنهج الّذي رسمه الله لعباده بأن لا يسلكوا غيره في العبادة له تعالى. ولكنهم أبوا إلا أنْ يخالفوا هذا المنهج، فاختلقوا من تلقاءِ أنفسهم أشكالاً غريبةً من المناسك والتعبد وربما اقتبسوها من طقوس المشركين واليهود والنصارى أسوةً بعبدة الأوثان، وتقربا إلى اللهِ بما يسخطُه، ورهبانيةً ابتدعوها ما كتب الله عليهم، وما أنزل الله ا من سلطان.

إلا أنّ الأمر لا ينبغي أن يكونَ مجرد تحذيرٍ من منطلقِ الحقد عليهم والبغض لهم، لأنّ ذلك يثيرهم، فلا يجدي بما هو المطلوب. إذ ليس من المعقول أن يرجى هدايةُ من يكره على الطاعة ولو كانت الدعوة إلى الحق الّذي لا مريةَ فيه. لاَ إِكْراه في الدينِ قَد تبين الرشد من الْغي فَمن يكْفُر بِالطاغُوت ويؤمن بِالله فَقَد استمسك بِالْعروة الْوثْقَى لاَ انفصام لَها والله سميع عليم. (البقرة/٢٥٦). وقد يكون التشدد في الدعوة سببا لتطور الخلاف بين أصناف الناسِ. إنك لاَ تهدى من أَحببت ولَكن الله يهدى من يشاءُ وهو أَعلَم بِالْمهتدين.(القصص/٥٦). ادع إِلى سبِيلِ ربك بِالْحكْمة والْموعظَة الْحسنة وجادلْهم بِالتي هي أَحسن إِن ربك هو أَعلَم بِمن ضل

عن سبيله وهو أعلم بِالْمهتدين.(النحل/١٢٥). لأنّ التشدد في الدعوة ربما يؤدي إلى تفاقم الفتنة والشغبِ، والفتنة نائمةٌ يحرم إيقاظها.

هذا فإنّ من طبيعة عوام الناسِ، أنهم يغترون دائما بظواهر الأمور ويعتمدون على الشكل، لعجزهم عن الإطلاعِ على المقصود به. خاصةً فإنّ الطبقة العامية في تركيا معروفة بإفراطها في التقليد. هذه الخصلة أوقعت كثيرا منهم في الزندقة والبِدعِ باتباعهم شيوخ الصوفية والمنتحلين. فمتى وجد أحدهم شيخا معمما وعليه لباس المتنسكين علقت به نفسه، خاصةً إذا وجد حولَه جماعةً ركن إليه وافتتن به. هذا التقليد الأعمى هو الّذي حمل الناس في هذا البلد منذ القديم على اتباعِ شيوخ الصوفية والمبالغة في تعظيمهم وتوقيرهم. حتى عدوهم من أولياء الله رجما بالغيب، ووصفوهم بما ليس فيم من خصالٍ جليلة، واعتقدوا فيهم ما يستحيل عليهم. وقد بلغ تعلّقهم بمثل هؤلاءِ حتى إذا تصدى لهم أحد وأنكر علهم ما يعتقدون في شيخهم من علم الغيبِ والخوارق على أ ا من كراماته، تعرض لسخطهم، وربما ناله خطرهم. وقد يشجعهم موقف شيخهم منهم. لأنّ شيوخ الصوفية يسكتونَ على كل ما يعتقد فيهم أنصارهم مما حرمه الله، أو ما يستحيل عليهم عقلاً. وربما يثيرو م على المناوئين.

وليس من القليل ما وجدنا من هذا القبيل، خاصةً وأنّ المناطق التي يسكنها المسلمون من غير العربِ، فإنّ هؤلاءِ الأشخاص المستغلّين هم أكثر حظا في إضلالِ الناسِ وأقدر على ذلك في تلك المناطق. كما لا يخفى أنّ الصوفيةَ لا أثر لهم يستحق الذكر في المناطق العربية. أما بقيةُ المسلمين من الأكراد والأتراك والشراكسة وغيرهم من الأقلّيات العجمية، فإنّ العامةَ منهم تشعر نقصا بالغا في نفسِها أمامهم.

إذ ينشأُ هذا الشعور من جهلها بالأمورِ الدقيقة في الدين من جهة، كما أنّ الديانات القديمةَ التي كانت هذه الشعوب تعتنقُها في ما سبق، لَها آثار ظلّت في نفوسِ البعضِ منهم، ثم تفاقمت وشاعت مع الزمان بعد أن أُجرِيت عليها تعديلات وتمّ عرضها باسمِ الإسلامِ من جهة أخرى. وما دامت اللغةُ العربيةُ هو المفتاح الوحيد الذي لا يمكن الوصولُ إلى الإسلامِ إلا بِها، فإنه لابد لهذه الشعوبِ أن تتم ذ اللغة لتقيم صلَتها مع الإسلامِ من جدبد وبصورة صحيحة. وإلا فلا يكاد ا تمع يتخلص من الإضطراب والفوضى السائد على المعتقدات والأفكار في هذا البلد.

كذلك، فإن للشيعة أثر كبير على معتقدات الأكراد السنيين القاطنين في شرق البلاد (المنطقة الواقعة على الحدود الإيرانية التركية)، وذلك بحكم الجوار. ولهذا الأثرِ ملامح ظاهرةٌ على الحياة الدينية للأكراد. كاعتقادهم بالأئمة الاثنى عشر على غرار الشيعة. ويشهد على ذلك ما تتضمنه رسالةُ (نو ار) للشيخ أحمد الخاني التي قد ألّفها باللغة الكردية (وأخيرا قد تمّ تصحيحها وتنقيتها من آثار المعتقدات الدخيلة)؛ وكاعتقادهم بما ينسب إلى شيوح الطُرقِ الصوفية من علم الغيبِ والتصرف في القدرِ. لذا يتواضعونَ لهم تواضع العبد الرقيق لسيده على غرار أهل الرفضِ لآياتم، بل يبلُغُ هذا التواضع منهم أحيانا إلى تذللِ الكلبِ لصاحِبه. وقد أصبحت هذه العادةُ شائعةً بين الجماعات الصوفية كما يشهد على هذه الحقيقة ما نقلَه ابن عابِدين في رسالته (سل الحُسامِ الهندي...) من كلامِ الشيخ خالد البغدادي المعروف بين أتباعه بِـ (ذي الجناحين)، أنه يقول:«أنا من كلاَبِ السادات» (ص/٣٧)

أما شيوخ الطرق الصوفية في الحقيقة ليسوا على علمٍ تام بِلُب العقيدة الإسلامية والتوحيد الخالص لأسباب كثيرة تعود إلى الظروف الاجتماعية التي تحيط م والبيئة التي يتربونَ فيها والمناهج التعليمية الوعرة المتطرفة التي تطَبق في مدارسهم. لذا لا يكاد أحد منهم يتقن لُغةَ الضاد نطْقًا وكتابةً، بل يقتصرونُ على حفظ قواعد الصرف والنحو، ويضربونَ مثالاً شيطانِيا في العناد ذه المحاولة دونَ أن يتذوقوا حلاوةَ هذه اللغة، ولا أن يفطنوا إلى أنها أداةٌ للتعبير عن كُل ما يقصد به من سلبٍ وإيجابٍ. لذا فإن معرفتهم متفاوتةٌ فيها، بل قليلةٌ غالبا، حيث لا يكاد أحد منهم يكتب وينطق بالعربية حتى بأدنى ما يدور في خلده ويدب في ذهنِه من أمورٍ بسيطة؛ إلا من كانَ منهم من أبناءِ أسرة عربية. كذلك إنهم جهلةٌ بواقع العصرِ والتطورات الخطيرة بما يعانونَ من الفقر العلمي والفكري؛ يأخذُ بعضهم من البعضِ الآخرِ دونَ معرفة، وينقُلُ منه دونَ روية، يقلدونَ صناديدهم بلا وعيٍ، ويعبدونَ الله على غيرِ بصيرة، وإنما يقتصر همهم على جمع الناسِ حولَهم بطُرقٍ شتى وأساليب ماكرة، وقد تدعمهم الحكومات والسلُطات لإبعاد الناسِ عن الحياة السياسية حتى تخلُو لَها الجو، وتصفُو لَها الأمور ليتهنى رِجالُ السياسة والطائفَةُ الحاكمةُ بِما شاءَت لَهم أنفُسهم.

كذلك، فإن شيوخ الطرقِ الصوفية هم في غفلتهم يعمهمن، وبأباطيلهم يشتغلونَ. لا يهمهم ما يحل بالمسلمين من عدوان أهلِ الكفرِ، وما يتعرضونَ له اليوم في مختلف انحاءِ العالَمِ على أيدي اليهود والنصارى وا وسِ من تشريد، وقهرٍ، وظلمٍ، واضطهاد، وقتلٍ، وقمعٍ، وإبادة... أما الشيوخ، فإنهم لا يكادونَ يتقلبونَ في حياة موهومة غافلين عن كُل ما يجري حولَهم من صراعٍ، وحروبٍ، وتطورات، واكتشافات، وأحداث غَريبة، وانقلاَبات خطيرة، يتأثر بِها المسلمونَ؛ بل إنهم

زيادةً على هذه الغفلة يتقولونَ على اللهِ بتأويلِ آياته وحملها على غيرِ ما أراده اللهُ، وإنْ كانَ القليلُ منهم يتعمدونَ التلبيس والتدليس في ذلك. كما أن أكثريةَ المعاصرين منهم أيضا غافلون عما وقع فيه أسلافُهم من الضلالة على جهلٍ، لعجزهم عن درك الحقيقة، وهذا هو السببِ الأساسي لافتنان الأخلاف بساداتم الأولين وكبراءهم الذين أضلّوا السبيلَ، وأفسدوا عليهم الفهم الصحيح. ذلك أنّ إفراطَهم في تعظيم شيوخم هو المصيبةُ الكبرى لهؤلاء الأخلاف. لأنّ شدةَ اعتقادهم في أسلافهم وصلَ م إلى درجة من اليقينِ المؤكد في كمالهم حتى آمنوا بأنه يستحيل عليهم الوقوع في الخطأ اطلاقًا. ولهذا يقدسونَ شيوخهم، وينقادونَ إليهم في كُل ما قد ورد عنهم من أراجيف عبدة الأوثان، وقد يزيدونَ عليها ما توي إليه نفوسهم من كُل بدعة وهرطَقَة. فَيتناقَلُها جيلٌ عن جيلٍ. كما أن غالب الناسِ ممن هو أعمى قلبا منهم، مغترونَ م اليوم. وقد دأبوا لأنفُسِهم أورادا وأذكارا ومناسك، أخذوا جزئياتها من الإسلامِ، فركّبوا منها أشكالاً غريبةً، وسموها بأسماءَ مزيجة بالفارسية، مثل: «ختمِ خواجكان، و هوش دردم، و سفَر در وطَن، و خلْوت در أنجمن، و يادكَرد، و بازكَشت و نِكَاه داشت، و ياد داشت...» وغير ذلك. وقد اختلقوا صيغا غريبةً من الدعاءِ والمديحِ يرددونها ويؤلهونَ بها غير اللهِ، ويبالغونَ بها في مدائحِ ساداتهم كقولهم: «قطب العارفين، وغوث الواصلين، وإمام المتقين، وتاج الكاملين، ونور السماوات والأرضين...»! وعندما يذكرونَ اسما من أسماءِ ساداتهم، يعظمونه بدعاءٍ غريبٍ. يبدو من هذا الدعاءِ أنهم لا يرونه في حاجة إلى رحمة الله، بل يرونه غنيا عنها، فيقولونَ: «قَدس اللهُ سره العزيز» أو «قَدس الله أسراره، وأفاض علينا بِره وبركَته وأنواره...» إلى غير ذلك من شركيات، وخزعبلات وإسرائيليات مخالفة لأسلوبِ دعاءِ المسلمين.

إذ لا يستنكف المسلم أن يطلُب من الله الرحمةَ سواءٌ كانَ لنفسِه أو لغيرِه من المؤمنين ولو كانَ نبيا.

في الحقيقة إنهم يواجهونَ ردا عنيفًا ودفاعا شديدا من علماء المسلمين في كُل عصرٍ، ولا يبرحونَ في ضيقٍ وحرجٍ لما اقترفوا من الجنايات على الإسلامِ بأنواع المُفْتريات، ويزعمونَ أنَ المسلمين لا يعتقدونَ بالشفاعة والتوسلِ وكرامات الأولياءِ، لأن الصوفيةَ يعدونَ صناديدهم فحسب من الأولياءِ دون غيرِهم، رجما بالغيبِ، بينما المسلمونَ لا يعترفونَ م. ومن خرافياتهم التي لا حصر لها: أن الولايةَ متسلسلةٌ عند بعضهم في سلالات معينة من مشائخ الطرقِ؛ فهي عائلات مقدسةٌ عندهم.

ولهذه الأسبابِ كُلها يجب الاحتياطُ في معاملة الصوفية، وإرشادهم إلى الحق، ومجادلتهم بالّتي هي أحسن؛ لأنهم أشد الناسِ تعصبا وتعنتا وحمقًا واغترار. فإن إقناع الأحمقِ والمغتر والمكابِرِ من أشد الأمورِ تعقيدا. وقد قال تعالى بشمولٍ وعموم: سأصرِف عن آياتي الذين يتكبرونَ في الأرضِ بِغيرِ الْحق...(الأعراف/١٤٦).

هذا، ومن خصائص شيوخ النقشبندية أنّ أكثرهم يرفضونَ الحوار، لذا يستحيل تبادل الرأي والمناقشة معهم؛ ذلك لفرط عنادهم، ولإعجا م بعقيدتم، واغترارهم بمن أفسدوا عليهم سبلَ الهدى وألْبسوا عليهم الحق بالباطلِ، واعتزازهم بمن حولَهم من الأنصارِ والمؤيدين؛ خاصةً فإن الأمر يتأكّد حذرا وحيطةً مع الشيوخ الذين يتمتعونَ بكثرة رجالهم، الجَهلَة من المريدين الذين هم رهن إشارتم، ليفتدوا

بأموالهم وأنفسهم في سبيلِ أدنى غرضٍ من أغراض الشيخ. إن هذا الرصيد من القوة العمياءِ مع العقلية الحمقاءِ، هو الذي جعل رجالَ السياسة يسايرو م في هذه البلاد، ليستغلّوا تأييدهم في كلّ موسمٍ للإنتخابات. ولله در من قال:

إذا كانَ الزمانُ زمانَ حمقٍ * فإنّ العقلَ حرمانٌ وشؤم.
فَكُن حمقي مع الحُمقى فإني * أرى الدنيا بدولَتهم تدوم.

ومما يجب معرِفَتها على الناهضِ لمُقَارعتهم أن يعلم: إنّ دين التصوف يأمر بأشياءَ كثيرة قد أمر بِها الإسلام قبلَ هذا الدينِ المستحدث؛ كالزهد، والتقوى، والعفة، والقناعة، والحلمِ، وصفاءِ السريرة، والاستقامة والكرمِ، والإيثارِ، ومحبة اللهِ ومحبة رسوله والصالحن، وملآزمة ذكر اللهِ، والمواظبة على النوافلِ، والشفَقَة على خلقِ اللهِ، والصبرِ، والتوكلِ على اللهِ، إلى غيرِ ذلك من الخصالِ الحميدة، والأعمالِ الصالحة، والسلوك الرفيعِ. فليتأكّد المناهض لهم بأنهم يتوارونَ ذه الأعمالِ والخصالِ في ظاهرهم، ويدافعونَ بِها عن أباطيلهم.

أما في الواقعِ فإن هذه الأمور كلها جزئيات من صميم الإسلامِ، وليس لها ادنى صلة بدين التصوف ولا بالطرقِ الصوفية التي هي في الحقيقة منظمات مشبوهةٌ مختلفَةٌ ذات عقَائد مزيجة بين تعاليم الإسلامِ والأديان الوثنية. ذلك، أنّ الصوفيةَ قد أقتبسوا مفاهيم كثيرةً من الإسلامِ فاستغلّوها، وتقمصوا ا عن حظ نفسٍ، ثم أضافوا إليها ما ليس من الإسلامِ في شيءٍ، واختلقوا طقوسا ومفاهيم ومعتقَدات ما أنزل الله ا من سلطان. كحلقات الّذكرِ، وحفَلات سرية (بالسمِ التوجه والصحبة)، ومناسك دجلية مقَلدة من مناهلِ الشرك والوثنية، (كرابِطَة الشيخ،

وعد الأذكارِ بالحَصى)، واستعراضات غريبة (كالسماعِ، والرقصِ، والحركات الموزونة جماعةً وفُرادى، والعزف على آلات الموسيقى، والترنمات المطربة، وطعن الأسياخِ في الجسمِ، وابتلاعِ المواد القاطعة، كالزجاجِ وقطَعِ الأمواسِ، ومس النارِ)... ولهم أحوالٌ، وأقوالٌ، وأطوار، وبِدع مثيرةٌ كالوثبِ، والقفزِ، والشطحات، ودعوى علم الغيبِ واعتقاد ذلك في المتنسكين والمتزمتين من أولياءهم، وقولهم بالمكاشفات، والاتحاد والحلولية...

كل ذلك مأخوذةٌ من الزرادشتية، والهندوكية، والمانوية والغنوصية وأمثالها من الأديان المحرفة والعقائد الوثنية، والفلسفة اليونانية... خاصةً فإن لكُل من اليهودية والمسيحية تأثير كبير على دين التصوف؛ وبذلك قد مزج الصوفيةُ ضروبا شتى من الأباطيلِ بتعاليم الإسلامِ. خلَطُوا عملًا صالحا وآخر سيئًا، ولكنهم لم يعترفوا بذنو م وما اقترفوا من جنايات على الإسلامِ، بل أصروا دائما بأنهم على الحق وغيرهم على الباطل، قصدوا بذلك أهلَ التوحيد الخالصِ ومن اهم عن الشرك من أئمة المسلمين، واعتمدوا على تأويل المتشا ات من الآيات كما أشارت لهم أنفسهم، كتأويلهم لقوله تعالى: ياأيها الذين آمنوا اتقُوا الله وابتغوا إِلَيه الْوسيلَةَ وجاهدوا في سبِيله لَعلكُم تفْلحونَ. زعموا «أن في ذلك اشارةً إلى التوسلِ بالأولياءِ والاستمداد من روحانيتم والتشفعِ م» (المائدة/٣٥)، كذلك تأويلهم لقوله تعالى: ياأيها الذين آمنوا اتقُوا الله وكُونوا مع الصادقين. زعموا أنّ في هذه الآية الكريمة اشارةً إلى اتخاذ شيخٍ من الصوفية والقيامِ برابطته، وهي شكلٌ من أشكالِ العبادة عندهم.

هكذا تجرأوا على تأويل الآيات من كتاب اللهِ. فَأَما الذين في قُلُوبِهِم زيغٌ فَيَتبِعونَ ما تشابه منه ابتغاءَ الْفتنة وابتغاءَ تأْوِيله وما يعلَم تأْوِيلَه إِلا الله، والراسخونَ في الْعِلْمِ يقُولُونَ آمنا بِهِ كُل من عند ربنا وما يذكر إِلا أُولُوا الأَلْبابِ. فركّبوا منها دينا سموه التصوف، ورتبوا منها طرقًا متباينةً، فسقوا ا الناس السم في العسلِ.

هذا وليس من السهلِ لأحد أنْ ينتبِه إلى هذه الحيلِ المتمثلَة في التصوف، ولا أن يكافح هذا الخطر الذي يتربص بالمسلمين ليجرِفَهم إلى جهنم وهم يصلّونَ ويصومونَ ويتنفّلونَ ويتبتلونَ ويذكرونَ اللهَ!!! إلا إذا كان الله قد أقدره على ذلك وألهَمه رشده، وهداه إلى الحق، والله يهدي من يشاءُ إِلَى صراط مستقيمٍ.

فريد
صلاح الهاشمي
Feriduddin AYDIN
ferid@maktoob.com

الطبعة الثانية –٢٠٠٣م.